مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (39) العدد (4)2017
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (39) No. (4) 2017

أقسام البيان بين الجاحظ و ابن وهب الكاتب

الدّكتورة وضحى يونس*
إلهام إسكندر حجحاج**

(تاريخ الإيداع 4 / 9 / 2016. قبل للنشر في 6 / 7 / 2017)

□ ملخّص □

يسعى هذا البحث إلى معالجة إشكاليّة اتّهام ابن وهب الكاتب أبا عثمان الجاحظ بأنّه لم يعطِ البيان حقّه، ولم يدرسه دراسة كافية، فزعم استكمال النّقص من خلال دراسته أوجه البيان دراسة مفصلة الّتي تتشابه إلى حدّ كبير مع أوجه البيان عند أبي عثمان الّذي أشار إلى أهميّة العلاقة بين اللفظ والمعنى و ضرورة التّناسب بينهما. و أنّ المعنى أسبق من اللّفظ ويأتي قبله؛ لأنّه يعتمد على الفكر والتّأمّل. ويصنّف أقسام البيان تصنيفاً هرميّاً متسلسلاً من خلال طبقات تنحدر من سابقتها وتنتج عنها. كذلك يجعل ابن وهب يجعل أقسام البيان ناتجاً بعضها من بعضها الآخر. فهي عند النّاقدين عمليّة تولّد لتلك الوجوه . وعلى الرّغم من التّشابه الكبير في أقسام البيان عندهما لم يكن ابن وهب ناقلاً ناسخاً فقط بل إنّه أضاف وأضاء في بعض الأماكن؛ فقد انفرد في الحديث عن الكتّاب فحصرهم في خمسة هم كاتب خط وكاتب لفظ وكاتب عقد وكاتب حكم وكاتب تدبير. وذكر أهمّ الصّفات التي يجب أن يتحلّى بها كاتب الخطّ. وقسّم المكاتبين إلى ثلاث مراتب وتوسّع في الحديث عن أجناس الخطّ وأنواع القلم. وهذه الموضوعات أغفلها الجاحظ في أثناء حديثه عن أقسام البيان.

الكلمات المفتاحيّة: البيان، الجاحظ، ابن وهب، اللفظ، المعنى، الكاتب.

* مدرّسة – قسم اللغة العربية –كلية الآداب و العلوم الإنسانية –جامعة تشرين– اللاذقية– سورية.
** طالبة ماجستير – قسم اللغة العربية –كلية الآداب و العلوم الإنسانية –جامعة تشرين– اللاذقية– سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (39) العدد (4)2017
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (39) No. (4) 2017

The concept of " rhetorics " between Al-Jahiz and Ibn Wahab Al-Kateb

Dr. Wadha younis*
Ilham Jahjah**

(Received 4 / 9 / 2016. Accepted 6 / 7 / 2017)

□ ABSTRACT □

This research tries to address the problem of Ibn Wahab Al-Kateb Types of Rhetorics according to Al-Jahiz and Ibn Wahab Al-Kateb

accusing Abi Othman Al-Jahiz of not giving rhetorics what it is worth, and of not studying it thoroughfully. Ibn Wahab claimed completing what is missed through his detailed study of the types of rhetorics, which are, to a large extent, similar to the types of rhetorics according to Abi Othman.The later referred to the importance of the relation between pronunciation, meaning and the necessity of the accordance between the two. In addition, meaning is prior to pronunciation because it depends upon thought and contemplation. He describes the types of rhetorics in a pyramidal sequential through levels that stem-- and result-- from each other.

Similarly, Ibn wahab considers that the types of rhetorics result from each other. These types, according to critics, are a process of a birth of these forms.

Despite the big similarity of the types of rhetorics according to both Ibn Wahab Al-Kateb and Abi Othman Al-Jahiz, the first was not only a transcriber, but also he added and clarified in certain areas. He exclusively talked about writers and classified them in one of five: transcript writer, pronunciation writer, contract writer, judgment writer and management writer. He also mentioned the most important features that a transcript writer must have and divided writers into three levels. He extended in talking about the types of handwriting and the forms of pens. These issues were dropped by Al-Jahiz when talking about the types of rhetorics.

Key words: Rhetorics , Al-Jahiz, Ibn Wahab, pronunciation, meaning .

*Assistant Professor- Department of Arabic --Faculty of Arts and Humanities - Tishreen University, Lattakia, Syria.
** Postgraduate student - Department of Arabic --Faculty of Arts and Humanities - Tishreen University, Lattakia, Syria .

مقدّمةُ:

قسّم الجاحظ البيان إلى خمسة أقسام هي اللفظ والإشارة والعقد والخطّ والنّصبة. فالبيان عنده أو العمليّة التّواصليّة لا تقتصر على التّلفّظ فقط بل تتعدّاها إلى وسائل أخرى كالإشارة والحساب والكتابة والتّأمّل. وقد درس الجاحظ البيان بشكله الأوسع الرّحب، وكانت الغاية الأولى لذلك تحقيق الفهم و الإفهام بين المتكلّم و السّامع. في حين نجد ابن وهب الكاتب يقسّم البيان إلى أربعة أقسام هي الاعتبار والاعتقاد والعبارة والكتاب. ويجعل الوحي الّذي يقابل الإشارة مبحثاً في باب العبارة. أمّا العقد فلا نجد له نظيراً عند ابن وهب.

أهميّةُ البحثِ و أهدافُهُ:

يحاول هذا البحث أن يكشف النّقاب عن أقسام البيان عند عمرو بن بحر الجاحظ، الّتي تتمثّل بخمسة أقسام وموازنتها بأقسام البيان عند ابن وهب الّتي تتمثّل بأربعة أقسام. وذلك لأنّ الثّاني زعم أنّ الأوّل لم يأت على أقسام البيان فجاء كتابه (البرهان في وجوه البيان) ـ حسب زعمه ـ استكمالاً للنّقص الموجود في كتاب (البيان والتّبيين). فهل تميّز ابن وهب في دراسته عن دراسة الجاحظ أم أنّه قلّده وسار على خطاه؟ و ما هي نقاط التّشابه و الاختلاف بين النّاقدين؟ أسئلة يحاول هذا البحث الإجابة عنها والتّفصيل فيها.

منهجيّة البحث:

سيتّخذ البحث المنهج الوصفيّ مشفوعاً بالتّحليل لمعالجة الأسئلة السّابقة؛ لأنّ المعالجة تقتضي الوقوف عند بعض الموادّ الشّعريّة و النّثريّة، ومن ثمّ تحليلها للكشف عن أقسام البيان عند الجاحظ و موازنتها بمثيلاتها عند ابن وهب الكاتب.

1)- اللّفظ و العبارة:

اللّفظ: كان الجاحظ من المهتمّين بدلالة اللّفظ إذ جعله أوّل دلالات المعاني الخمس، وقد أشار إلى أهميّة اللّفظ في إيصال الفكرة إلى ذهن المتلقّي، وهو يرى أنّ الإنسان حديثٌ فإذا فقد هذه الميزة كان إنساناً ناقصاً، ويذكر في رسائله ما يؤكد ذلك من خلال قول أحد الحكماء لابنه: " يا بنيّ، إنّما الإنسان حديثٌ فإذا استطعتَ أن تكونه حديثاً حسناً فافعل "[1] .

والجاحظ يؤيّد أرسطو الّذي يدعوه صاحب المنطق في أن ما يميّز الإنسان عن سائر الكائنات الحيّة الأخرى هو قدرته على الكلام، وتوضيح مراده من خلال استخدامه الألفاظ، فيقول: " قال صاحب المنطق، حدُّ الإنسان الحيُّ النّاطق المبين "[2] . و يعد البيان باللّفظ كالبصر والعيّ كالعمى، فيقول: " قالوا: البيان بصر والعيّ عمى "[3].

إنَّ اللّغة الّتي تعتمد على الألفاظ الّتي تعتمد بدورها على الأصوات، تعدّ من أهمّ وسائل التّواصل بين المتكلّم والسّامع. و يشير الجاحظ إلى دور الأصوات في عملية التلّفظ والنّطق، فلولا الصّوت لما ظهر اللّفظ ولا استطاع الإنسان استخدام اللّغة لإيصال أفكاره، فضلاً عن دورها في التّقطيع والتّأليف. يقول: " الصّوت هو آلة اللّفظ

---

[1]- **الجاحظ، رسائل الجاحظ، ص160.**

[2]- **الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 57.**

[3]- **السابق نفسه.**

وهو الجوهر الّذي يقوم به التّقطيع، وبه يوجد التّأليف، ولن تكون حركات اللّسان لفظاً ولا كلاماً موزوناً ولا منثوراً إلّا بظهور الصّوت. ولا تكون الحروف كلاماً إلّا بالتّقطيع و التّأليف "[1].

و قد شبّه أبو عثمّان اللّسان في وظيفته بالتّرجمان لأنّه ينقل المعاني من داخل الإنسان إلى خارجه عن طريق اللّفظ و الكلام لذلك كان اللّسان " أداة يظهر بها حسن البيان، وظاهر يخبر عن الضّمير، وشاهد ينبئك عن غائب... "[2]. فأهميّة اللّسان تكمن في إيصال المعنى وتقريب المفهوم إلى المخاطب فَ " كلّما كان اللّسان أبين كان أحمد " [3].

ولم يغفلْ الجاحظ في أثناء حديثه عن دلالة اللّفظ الإشارة إلى أهميّة العلاقة بين اللّفظ والمعنى، وضرورة التّناسب والتّناسق بينهما، وأن يكون اللّفظ مناسباً للمعنى وللمقام، بعيداً عن الإطالة والإسهاب في غير موضعهما المناسب " فقد رُوي عن ابن عمر رضي الله عنهما، أنّه قال إنّ أُناساً سألوا ابن عمر الدّعاء لهم، فقال: اللهمّ ارحمنا وعافنا وارزقنا، فقال له رجل: لو زدتنا يا أبا عبد الرّحمن. فقال: نعوذ بالله من الإسهاب "[4].

العبارة: يمثّل بيان العبارة عند ابن وهب القسم الثّالث من أقسام البيان، ويعني به البيان بالقول وهو يقابل اللفظ عند الجاحظ و يشير إلى أن معنى العبارة في كلّ اللّغات واحد، لكنّ العبارة نفسها تختلف من لغة إلى أخرى. وقد قّسم بيان العبارة تقسيماً مشابهاً لتقسيم بيان الاعتبار وجعله قسمين: ظاهر و باطن.

فالظّاهر لا يحتاج إلى تأويل وتفسير، أمّا الباطن فإنه يحتاج إلى تفسير ويمكن الوصول إليه عن طريق القياس والنّظر والاستدلال والخبر.

ويشير ابن وهب إلى أنّ اللّغة العربيّة ببيانها الّذي أتى به سيّدنا محمّد(ص) لها وجوه وأقسام ومعانٍ وأحكام لا بدّ لمن يريد فهم معانيها أن يقف عليها ويستخرج ما يدلّ عليها من ألفاظ ليصل إلى مراده، ويصل إلى بغيته وإلّا لما استطاع ذلك و منها ما هو خاصّ بالعرب ومنها ما هو عامّ لهم ولغيرهم . وكلّ ذلك يتمّ عن طريق الخبر أو الطلب. **فالخبر**: " كلّ قول أفدتَ به مستمعه ما لم يكن عنده " [5]. وأمّا **الطّلب** فيعرّفه بقوله: " كلّ ما طلبته من غيرك، ومنه الاستفهام والنّداء والدّعاء والتّمني "[6].

و يتحدّث ابن وهب في باب بيان العبارة عن موضوعات كثيرة كالاشتقاق والتّشبيه والرّمز والاستعارة والوحي والشّعر والبلاغة والخطابة والتّرسّل ونماذج من الخطب والرّسائل.

2)- الإشارة و الوحي:

الإشارة: انتقل أبو عثمان للحديث في القسم الثّاني من أقسام البيان إلى الحديث عن دلالة الإشارة بعد أن تحدّث عن دلالة اللّفظ وما له من ميزات، فبيّن فضلها وفائدتها ووسائلها وما تميّزت به من اللّفظ، وجعلها مباشرة بعد دلالة اللّفظ نظراً لأهميّتها.

---

[1]- السابق ج1، ص58.

[2]- السابق ج2، ص 270.

[3]- السابق ج1، ص14.

[4]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص،124 ،123. الإسهاب: الإطناب و التطويل.

[5]- ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، ص 113.

[6]- السابق نفسه.

وتحدّث الجاحظ عن الوسائل الّتي تتمّ بها الإشارة فذكر منها: تحريك الأعناق وقبض جلدة الوجه وكسر الجفن وليّ الشفاه، يقول في كتابه (الحيوان): " فأمّا الإشارة فأقرب المفهوم منها: رفع الحواجب وكسر الأجفان وليّ الشفاه وتحريك الأعناق وقبض جلدة الوجه، وأبعدها أن تلوي بثوب على مقطع جبل تُجاه عين النّاظر " [1]. و ذكر من وسائل الإشارة ما يكون " باليد وبالرّأس وبالعين والحاجب والمنكب إذا تباعد الشّخصان وبالثّوب وبالسّيف وقد يتهدد رافع السوط والسيف فيكون ذلك زاجراً و رادعاً ويكون وعيداً و تحذيراً "[2].

فأيّ شخص في أثناء تكلّمه لا يستطيع أن يستغني عن الإشارة لتوضيح كلامه وزيادة قوّة تأثيره في السّامع فهذا عبد الملك يقول مؤكّداً هذه الفكرة : " لو ألقيت الخيزرانة من يدي لذهب شطر كلامي"[3]، كذلك قول المغني " لو قبضتَ يده ومنعتَ رأسه عن الحركة لذهبَ ثلثا كلامه " [4]، وها هو ثمامة بن الأشرس يرى أنّ المتكلّم قد يستغني عن الإعادة، وقد لا يحتبس ولا يتوقّف ولا يتلجلج ولا يترقّب لفظاً قد استدعاه من بعد، ولا يلتمس التخلّص إلى معنى قد صعب عليه طلبه، غير أنّه لا يستغني مطلقاً عن الإشارة. يقول: " كان جعفر بن يحيى أنطق النّاس، وقد جمع الهداوة والتّمهّل والجزالة والحلاوة وإفهاماً يُغنيه عن الإعادة، ولو كان في الأرض ناطق يستغني بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة، كما استغنى عن الإعادة "[5] .

و الإشارة عمليّة مُساعدة لدلالة اللّفظ وربّما تنوب عنه أحياناً فيستطيع المتكلّم الإبانة عن غرضه، والتّفاهم مع غيره دون الحاجة إلى لغة. بل ذهب الجاحظ أبعد من ذلك بأنّ الإشارة قد تكون باللّحظ. يقول أبو داوود بن جرير الأياديّ:

يرمونَ بالخطب الطّوال وتارة وحيَ الملاحظ خيفة الرّقباء [6]

فالخطيب يبسط القول في موضعه ويحذفه في موضعه والإيجاز والكلام الّذي كالوحي والإشارة ممّا مدح به المتكلّم أو الخطيب، ويرى أبو عثمان أنّ رُبّ كلمة تغني عن الخطبة وتنوب عن رسالة، بل رُبّ كناية تربي على إفصاح ولحظٍ يدلّ على ضمير، وإن كان ذلك الضّمير بعيد الغاية على النهاية.[7]

وقد جعل الجاحظ الإشارة واللّفظ شريكين يُعين أحدهما الآخر، فهي تعينه وتترجم عنه وربّما نابت عنه في بعض الأحيان، يقول: " الإشارة واللّفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم التّرجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللّفظ وما تغني عن الخطّ "[8].

فالإشارة خير معين للّفظ فهي تزيده قوّة ووضوحاً، وتعين في توضيح مقاطع الكلام وأقسامه مثلما قال الجاحظ: " والمغني قد يوقع بالقضيب على أوزان الأغاني والمتكلّم قد يشير برأسه ويده على أقسام كلامه وتقطيعه، فطرقوا ضروب الحركات على ضروب الألفاظ وضروب المعاني " [1].

---

[1]- **الجاحظ، الحيوان، ج1، ص60.**

[2]- **الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 57.**

[3]- **السابق، ج3، ص 474.**

[4]- **السابق نفسه.**

[5]- **السابق، ج1، ص 73.**

[6]- **السابق،ج1، ص101. الملاحظ: العيون.**

[7]- **ينظر: السابق، ج2، ص240. لحظه، لحظاً: نظره بمؤخرة عينه.**

[8]- **السابق، ج1، ص 57.**

تنبَّه أبو عثمان إلى مسألة مهّمة وهي أنّ الإشارة تعبِّر عن خاصّ الخاصّ لأنّها لغة يصطلح عليها مجموعة من النّاس فتكون مفهومة بالنّسبة لكلّ من المتكلّم والسّامع، يقول: " وبعد فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة، وحلية موصوفة على اختلاف في طبقاتها ودلالتها. وفي الإشارة بالطّرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح، مرفقٌ كبيرٌ ومعونةٌ حاضرة، في أمور يسترها بعض النّاس من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس ولولا الإشارة لم يتفاهم النّاس معنى خاصّ الخاصّ و لجهلوا هذا الباب البتّة "[2] .

يتحدّث الجاحظ في النّص السّابق عن الإشارة بالعين وما تحمله من دلالات مختلفة كالتّرحيب والحبّ والبغض والخوف والوعيد وغير ذلك من المعاني التي يمكن أن تُفهم من حركات العين أو غيرها من أجزاء الجسم.

" يقول الشّاعر:

أشَارَت بِطَرفِ العَينِ خِيفَةَ أهلِهَـــا إشَارَةَ مَـذعُور ولـــم تَتَكلَّـــمِ

فأَيقنتُ أنَّ الطَّرفَ قد قالَ مَرحَبـــاً وأهلاً وسَهلاً بالحَبيبِ المتيَّـــتمِ

فهو من إشارتها له بطرف عينها فهم ما تقصده وهي الترحيب به.

ويقول آخر:

العينُ تُبدِي الَّذِي في نَفسِ صَاحِبِها من المحبَّةِ أو بُغضٍ إذا كانـــا

والعيـــنُ تَنطُـقُ والأفوَاهُ صَامتـــةٌ حتَّى ترى من ضميرِ القَلبِ تَبيانَا " [3]

فحركات العين تدل على مشاعر الإنسان وما يخفيه قلبه من حب أو بغض.

ويرى الجاحظ أنّ الإشارات والحركات والإيماءات هي عونٌ أساسٌ للّفظ لما لها من دور مهمّ في الإبلاغ والإقناع، لذلك فإتقان استخدامها أمرٌ مطلوبٌ في السّجالات والمناظرات.

ويشير إلى أنّ الإشارة تتميّز بقدرتها على إيصال رسالة يصعب فيها استعمال الصّوت، كبعد المسافة، وخوض المعارك، فيقول: " ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصّوت وهذا باب تتقدّم فيه الإشارة الصّوت والصّوت هو آلة اللّفظ " [4]، فالإشارة وسيلة مهمّة لنقل المعاني بوقت قصير ولمسافات بعيدة خاصّة إن لم تسمح الظّروف بسماع اللّفظ. غير أنَّ سيادة الإشارة بوصفها إحدى وسائل البيان في الفكر العربيّ لم يمنع مستخدمها من ضرورة مراعاة الأحوال والمقامات فاستخدامها يتطلّب منّا أن نراعي أقدار السّامعين [5]. من ذلك قول ابن سنان الخفاجيّ: " إنّ التّذييل يصلح للمواقف الجامعة وبحيث يكون الكلام مخاطباً به عامّة النّاس... والإشارة تصلح لمخاطبته الخلفاء والملوك "[6] .

فقد لا تنفرد الإشارة في العمليّة التّواصليّة ولكنّها مساعدة للّفظ من حيث إنّها موضّحة له وإن كان هو الوسيلة الأبرز للّتواصل الشّخصيّ؛ لأنَّ " هناك وسائل كثيرة غير لفظيّة يستخدمها الإنسان أو تصدر عنه بهدف نقل المعلومات أو الأفكار أو المشاعر، أو بهدف المساعدة على نقلها أو الدّقة في التّعبير عنها "[7].

---

[1]– الجاحظ، البيان والتبيين، ج3، ص474.

[2]– السابق، ج1، ص57، 58.

[3]– السابق، ج1، ص 58. ذعره: أفزعه وقد ذُعر فهو مذعور.

[4]– الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 58.

[5]– ينظر: مصطفى السعدني، استاطيقا الإشارة " دراسة بلاغية سيميوطيقية "، ص 28، 29.

[6]– ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص199.

[7]– أحمد مختار عمر، أنا واللغة والمجتمع، ص 129.

وهكذا فالإشارة تعدّ عنصراً موضّحاً ومكمّلاً للّفظ وذلك؛ لأنّ استعمال الإشارة في أثناء الكلام يزيد وضوحه ويبيّن مدى انفعال المتكلّم كما يزيد في تأثيره في السّامع، ويجب أن تتوافق الإشارة مع المعاني وَ " حسن الإشارة باليد والرّأس من تمام حسن البيان باللّسان الّذي يكون مع الإشارة "[1]. فإذا لم تكن الإشارة مناسبة للّفظ أو للمعنى الّذي يريده المُلقي لم نستطع الاستفادة منها وقلَّ دورها المرجوِّ في إيصال الرّسالة أو الفكرة للمُتلقّيَ.

الوحي: أمّا الوحي فهو الإبانة عمّا في نفس المتكلّم بغير اللّفظ، يقول ابن وهب " إنّه الإبانة عمّا في النّفس بغير المشافهة على أي معنى وقعت: من إيماء وإشارة ورسالة وكتابة "[2].

والوحي عند ابن وهب يقابل دلالة الإشارة عند الجاحظ فقد عد بعض الكتّاب أنّ بيان الإشارة عند الجاحظ لا يوجد له مقابل عند ابن وهب، لكنّ الوحي يحمل المعنى والغاية التي تحملها الإشارة عند الجاحظ الذي كانت الإشارة عنده " باليد وبالرّأس وبالعين والحاجب و المنكب إذا تباعد الشّخصان وبالثّوب وبالسّيف "[3].

وللوحي وجوه كثيرة **كالإشارة:** كما في قوله تعالى: ﴿ فخرج على قومه من المحراب، فأوحى إليهم أن سبّحوا بُكرةً وعشيّاً ﴾ مريم 11، **والوحي المسموع من الملك:** كقوله تعالى: ﴿ إنْ هو إلا وحيٌ يوحى علّمه شديد القوى ﴾ النجم 4-5، **والوحي في المنام:** ﴿ وأوحينا إلى أمّ موسى أن أرضعيه ﴾القصص 7.

و منه **الإلهام:** كقوله ﴿ وأوحى ربّك إلى النّحل أن اتخذي من الجّبال بيوتاً ومن الشّجر﴾ النّحل 68. أيّ ألهمها.

و منه **الكتاب:** "وحيت الكتاب" إذا كتبته.

ومن الوحي الإشارة باليد، والغمز بالحاجب و الإيماض بالعين ويضرب أمثلة على ذلك من الشّعر قول الشّاعر:

وتُوحِي إليهِ باللّحاظِ سلاقها ... مخافةَ واشٍ حَاضرٍ ورَقيب [4]

ويذكر ابن وهب المثال الّذي ساقه الجاحظ في كتاب البيان والتبيين:

أَشَارَتْ بِطَرْفِ العينِ خِيفةَ أَهْلِها ... إشارةَ مَحـــزونٍ ولمْ تتكلّمِ

وأيقنت أنَّ الطّرفَ قدْ قالَ: مرحباً ... وأهلاً وسَهلاً بالحبيبِ المُسلمِ

وهي الأبيات ذاتها التي ذكرها الجاحظ مع وجود اختلاف بينها كمثال على دلالة الإشارة عنده، وعلى ما يبدو أنّ الوحي عند ابن وهب يقابل الإشارة عند الجاحظ.

أيضاً نجد ابن وهب يسوق مثالاً آخر هو قول الشّاعر:

أَشَارتْ بِأطْـرافٍ كـــأنَّ بنَانهـا ... أَنابِيبُ دُرٍّ قُمعتْ بِعقيـــقِ

وقالتْ: كَلاكَ اللهُ في كلِّ مَشهـدٍ ... مكانُكَ فِي قَلبي مكانُ شَقيقِ [5]

وهو هنا يمثّل للإشارة باليد أو بأصابع اليدين و لقوّة تأثيرها فيه بوصفه مستمعاً و مشاهداً.

---

[1]- **الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص58 ،59 .**

[2]- **ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، ص139.**

[3]- **الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 57.**

[4]- **ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، ص 140.**

[5]- **السابق، ص 141.**

3)- العقد:

هو القسم الثّالث من أقسام البيان عند الجاحظ فهو يأتي بعد دلالة الإشارة. ويشير أبو عثمان إلى أنّ المقصود بالعقد هو الحساب، فيقول: " وأمّا القول في العقد وهو الحساب دون اللّفظ والخطّ، فالدّليل على فضيلته وعِظَمِ قدْر الانتفاع به قول الله عزّ وجلّ ﴿ فالق الإصباح وجعل اللّيل سكناً والشّمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ الأنعام 96، وقال جلّ وتقدّس: ﴿ والرّحمن علّم القرآن، خلق الإنسان، علّمه البيان، الشّمس والقمر بحسبان ﴾ الرحمن 1-2-3-4-5 "[1].

وقال عزّ وجلّ: ﴿ هو الّذي جعل الشّمس ضياء والقمر نوراً وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحقّ ﴾ يونس 5، وقال:﴿ وجعلنا اللّيل والنّهار آيتين فمحونا آية اللّيل وجعلنا آية النّهار مبصرةً لتبتغوا فضلاً من ربّكم ولتعلمُوا عدد السّنين والحساب ﴾ الإسراء 12.

وهكذا يذكر أبو عثمان الآيات الّتي تدلّ على أهميّة العقد والحساب وعلى ارتباط مفهوم العقد بالعقيدة الإسلاميّة، فلولا معرفة الإنسان لمعنى الحساب في الدّنيا لما فهمَ ما قصده الله من حساب الآخرة. يقول: " والحساب يشتمل على معانٍ كثيرة ومنافعَ جليلة ولولا معرفة العباد بمعنى الحساب في الدّنيا لما فهموا عن الله عزّ وجلّ ذكره معنى الحساب في الآخرة وفي عدم اللفظ و فساد الخطّ والجهل بالعقد فسادُ جُلّ النِعم، وفقدانُ جمهور المنافع، واختلال في كلّ ما جعله الله عز وجل لنا قواماً ، ومصلحة ونظاماً "[2] .

فالعقد يعني العدّ والحساب وهو يعتمد على إعمال العقل والمنطق، فمن بين أهمّ الوسائل التي يعتمدها الإنسان في دلالة العقد العقل؛ لأنّ العدّ والحساب مستوى من مستويات التّجريد فدلالته تختلف عن دلالة اللّفظ والإشارة وما دام العدّ شيئاً مجرّداً لاعتماده على العقل فهو لا يختلف عنه ولذلك أباحَ الجاحظ لنفسه تعمّد الالتباس باختيار مفهوم العقد[3].

و قد ذكرت بعض المصادر التّراثيّة أنّ الحساب بالأيدي هو اصطلاح للعرب القدامى ما زالت تحتفظ به بعض مناطق البحرين والبحر الأحمر.[4]

يقول الجاحظ مبيّناً المكانة المهمّة الّتي يحتلّها العقد: " فجعل اللّفظ للسّامع، وجعل الإشارة للنّاظر وأشرك النّاظر واللّامس في معرفة العقد "[5]. فاهتمام الجاحظ لم يكن مُنصبّاً على المتكلّم ومراده من الكلام فقط بل كان ينصبُّ ينصبُّ أيضاً على الاهتمام بالمتلقي وكيفيّة فهمه واستقباله للحديث الّذي يسمعه. وقد تفرد الجاحظ بيان العقد فلا نجد له نظيراً عند ابن وهب.

4)- الخطّ و الكتاب:

الخطّ: دلالة الخطّ هي القسم الرّابع من أقسام الدّلالة عند الجاحظ، ويقصد بالخطّ كتابة الكلام وتدوينه ممّا يجعله مرتبة تالية للّفظ، إذ لابدّ من وجود الكلام حتّى تتم عملية كتابته. يقول الجاحظ :" قالوا: القلم أحد اللّسانين كما قالوا : قلّة العيال أحد اليسارين وقالوا القلم أبقى أثراً واللّسان أكثر هذراً. وقال عبد الرّحمن بن كيسان: استعمال القلم

---

[1]- ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، ص 59.

[2]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص55.

[3]- ينظر: محمد الصغير بناني، المدارس اللسانية في التراث العربي، ص 19.

[4]- ينظر: كريم زكي حسام الدين، الاشارات الجسمية " دراسة لغوية لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التواصل "، ص 269.

[5]- الجاحظ، الحيوان، ج1، ص 45 ،46.

أجدَر أن يحضّ الذّهن على تصحيح الكتاب، من استعمال اللّسان على تصحيح الكلام وقالوا: اللّسان مقصور على القريب الحاضر والقلم مطلق في الشّاهد الغائب وهو للغابر الكائن مثله للقائم الرّاهن، والكتاب يُقرأ بكلّ مكان ويُدرس في كلّ زمان. واللّسان لا يعدو سامعه ولا يتجاوزه إلى غيره " [1].

يشير أبو عثمان في النّص السّابق إلى أهميّة الكتابة، فهي تجعل الكاتب يدقّق في كلامه ويهذّبه وينتقي معانيه ويحسّن أسلوبه بمراجعة ما كتبه والتمعّن به وهذا ما لا يستطيع اللّسان فعله بالمستوى ذاته. و يتميّز الخطّ أو الكتابة بأنّه يصل إلى الغائب في حين يصل اللّفظ إلى الحاضر القريب؛ كذلك فهو يُقرأ في كلّ زمان ومكان في حين اللّفظ لا يتجاوز سامعه ولحظة النّطق به.

و يرى أبو عثمان أنّ المعاني موجودة في الصّدور ويعبّر عنها بالخطّ كما يعبّر عنها باللّفظ ويمكن أن تعجب بها الأعين كما تعجب بها الأذن يقول: " وذلّت الأقلام على مدافن الألفاظ وأشارت إلى حسان المعاني ورأيت البصر في هذا الجوهر من الكلام في رواة الكتاب أعمّ وعلى ألسنة حذاق الشّعراء أظهر " [2]. و قد أعطى القرآن الكريم أهميّة للخّط وجعل له مرتبة قيّمة يقول تعالى: ﴿ اقرأ باسم ربّك الأكرم، الّذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم ﴾ العلق 3-4-5، ويقول أيضاً: ﴿ ن والقلم وما يسطرون ﴾ القلم 1.

نجد أيضاً أنّ سيّدنا محّمد صلّى الله عليه وسلّم قد أشار إلى أهميّة تدوين العلوم بقوله: " قيّدوا العلّم بالكتابة "[3]. وفي هذا إشارة إلى أنّ الخطّ يحفظ المعارف والعلوم من الضّياع والنّسيان. وهذا ما أشار إليه الجاحظ في قوله: " كلّ أمّة تعتمد في استبقاء مآثرها، وتحصين مناقبها، على ضرب من الضروب، وشكل من الأشكال [....] وكانت العرب في جاهلّيتها تحتال في تخليدها، بأن تعتمد في ذلك على الشّعر الموزون والكلام المقفّى وكان ذلك هو ديوانها "[4].

فالعرب قيّدت مآثرها بتدوين الشعر و الأدب في حين يرى الجاحظ أنّ العجم لم تعتمد على ذلك بل " ذهبت العجم على أن تقيّد مآثرها بالبنيان، مثل كرد بيدا، و بنى أزدشير بيضاء اصطخر، و بيضاء المدائن، والحَضْر، والمدن والحصون، والقناطر والجسور، والنواريس "[5].

ويشير إلى أنّ العرب أرادت مشاركة العجم في تشييد البناء إلى جانب انفرادها بالشّعر. فيقول: " ثمّ إن العرب أحبت أن تشارك العجم في البناء و تفرّدت بالشعر فبنوا غُمدان، و كعبة نجران و قصر مارد، و قصر مأرب، و قصر شعوب، والأبلق الفرد "[6].

---

[1]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص59.

[2]- السابق، ج3، ص605.

[3]- السابق، ج2، ص248.

[4]- الجاحظ، الحيوان، ج1، ص 71،72،73.

[5]- السابق نفسه. الحضْر: بناها الضّيزن ثمّ أغار على بلاد فارس فأسر أخت شاهبور فردّ شاهبور الإغارة على الحضر واحتلها وعاث فيها. المعجم المفصل في الأدب، محمد ألتونجي، ص368، 369.

[6]- الجاحظ، الحيوان، ج1، ص 71،72،73.

غُمدان: أول قصور اليمن وأكثرها ذكراً يُرجعون بناءه إلى سام بن نوح ويقولون إنه أحد ثلاثة قصور أمر سليمان الجن ببنائه لبلقيس ، وقيل غيره. المعجم المفصل في الأدب، ص673.

كعبة نجران: ويقال لها البِيعة. بناها بنو عبد المدان بن الدّيّان الحارثي على بناء الكعبة، وعظموها مضاهاة للكعبة. وسموها كعبة نجران. وكان فيها أساقفة معتّمون وقد ذكرها الأعشى في شعره. المعجم المفصل في الأدب، ص 724.

الأبلق: حصن منيع للسموءل الشاعر، وهو ابن عادياء. و سمّي قصره بالأبلق لاختلاف ألوان حجارته، وسمي أحياناً بالأبلق الفرد. بناه أبوه أو جده في حين يزعم الأعشى أنّ بانيه النبي سليمان على يد الجن. المعجم المفصل في الأدب، ص 17، 18.

وعندما يوازن الجاحظ بين دوام الكتب و بنيان الحجارة يقدّم تدوين العلوم على البناء؛ لأنّ البناء يمكن أن يُهدم، و يضرب على ذلك أمثلة عديدة، يقول: " و الكتب بذلك أولى من بنيان الحجارة و حيطان المدر، لأنّ من شأن الملوك أن يطمسوا على آثار من قبلهم وأن يُميتوا ذكر أعدائهم، فقد هدموا بذلك السبب أكثر المدن وأكثر الحصون، و كذلك كانوا أيّام العجم و أيّام الجاهليّة. و على ذلك هم في أيام الإسلام، كما هدم عثمان صومعة غمْدان و كما هدم الآطام التي كانت بالمدينة، و كما هدم زياد كلّ قصر و مصنع كان لابن عامر، و كما هدم أصحابنا بناء مدن الشامات لبني مروان "[1].

نجد في نصّ الجاحظ إشارة واضحة إلى أنّ الخطّ والتّدوين ذاكرة للأجيال، فهو ينقل لهم التّاريخ والعلوم والمعارف والحضارات، لأنّ الكتاب دليل ماديّ لا يمكن محوه وإلغاؤه بسهولة، وهو يحمل تلك المعارف من الأجداد إلى الأبناء، ومن ثمّ إلى الأحفاد فأثره واضح وأكثر تأثيراً من اللّفظ لأنّه لا يُقيّد بزمانٍ أو مكانٍ ما، بل هو يُقرأ في أيّ مكان وفي أيّ زمان.

وقد ذهب الجاحظ إلى أنّ العلاقة بين الخطّ والمعنى المعبّر عنه هي علاقة عرفيّة غير معلّلة تفهم من خلال الممارسة والاكتساب؛ فيعرف منها في تلك الصّور وكثرة تردّدها على الأسماع، ويعرف منها ما كان مصوّراً من تلك الألوان لطول تكرّرها على الإبصار، كما استدلّوا بالضّحك وصور جميع الهيئات[2].

الكتاب: تحدّث ابن وهب في هذا البيان عن أهميّة الكتاب في نقل أخبار الرّسل وكتبهم والعلوم والرّوايات، لذلك قيل: " العلّم أبقى أثراً واللّسان أكثر هذراً " وقالوا: " اللّسان مقصور على الشّاهد، والقلم ينطق في الشّاهد و الغائب "[3].

فالكتاب ينقل المعارف والأخبار ويسرد التّاريخ وهذا ما لا يفعله اللّفظ، فاللّفظ ينتهي مفعوله بوصوله إلى السّامع أمّا الكتاب فيُقرأ متى يشاء الشّخص وأينما يشاء.

و الكتاب يعين على الحفظ والنّفي للشك، وهو يساعد صاحبه على تهذيبه وتصحيح أخطائه، والكتّاب خمسة حسب تصنيف ابن وهب: كاتب خطّ وكاتب لفظ وكاتب عقد وكاتب حكم وكاتب تدبير، ولكلّ منهم مذهبه في الكتابة.

وتحدّث عن مراتب المكاتبين وقسّمها إلى ثلاث: مرتبة من فوقك ومرتبة نظيرك ومرتبة من دونك، كذلك ذكر من أجناس الخطّ الثّلثين والطّومار والشّامي، وقلم النّصف و الرّياسيّ وقلم المؤامرات وقلم الرّقاع.[4]

---

[1]– السابق نفسه.

[2]– ينظر: السابق، ج 1، ص48.

[3]– ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، ص313 ،314.

[4] – الثلثين: قلم السجلات، به كانت تكتب السجلات ويسمى الثلث المشبع. معجم مصطلحات الخط العربي والخطاطين، عفيف البهنسي، ص28.

– الطومار: صحيفة أو كتاب أو وثيقة أو أي ورقة ملفوفة ومشدودة ومحزمة ولا يكتب على ورق الطومار إلا بقلم الطومار. معجم مصطلحات الخط العربي والخطاطين، عفيف البهنسي، ص 96.

– النصف: خط كتب به الخلفاء العباسيين، معجم مصطلحات الخط العربي والخطاطين، ص 150.

– الرياسي: قلم مشتق من الثلث فيه زيادة للمدّات، ويميل إلى خط المُحَقّق والنّسخ. معجم مصطلحات الخط العربي والخطاطين. ص 64.

– المؤامرات: هو خط المشاورات. معجم مصطلحات الخط العربي والخطاطين. ص 137.

– الرقاع: من الأقلام القديمة التي استعملت في ديوان الإنشاء . والمعنى أن يكتب في الرقاع أي الورقة الصغيرة وهو كالثلث والتواقيع ولكن مصغر عنهما، والرقاع يكتب بالقلم المدوّر ويغلب فيه الطمس . معجم مصطلحات الخط العربي و الخطاطين.ص 63، 64.

5)- النّصبة و الاعتبار و الاعتقاد:

النّصبة: يعرّف أبو عثمان "النّصبة" بأنّها " الحال النّاطقة بغير اللّفظ والمشيرة بغير اليد ذلك ظاهر في خلق السّموات والأرض وفي كلّ صامتٍ وناطق..."[1] . فهو يأخذ على عاتقه من خلال أنواع الدّلالة عامّة، والنّصبة خاصّة مهمّة الدّفاع عن العقيدة الإسلاميّة، وإثبات وحدانيّة الله تعالى، وأنّ القرآن هو كلام الله الّذي جاء به النّبيّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

و القرآن الكريم يلحّ على الإنسان النّظر إلى ما خلقه الله والتّأمّل فيه بكلّ أشكاله، قال تعالى: ﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يُحيي الأرض بعد موتها إنّ ذلك لمُحيي الموتى وهو على كلّ شيء قدير﴾. الروم 50.

إنّ كلّ شيء في هذا الكون من كائنات وموجودات يدلّ على عظمة الخالق وقدرته اللامتناهية على كلّ شيء، وهذا ما يؤكّده أبو عثمان فيقول: " وذلك ظاهر في خلق السّموات والأرض، وفي كلّ صامت وناطق وجامد ونامٍ ومقيم وظاعن وزائد وناقص، فالدّلالة في الموات الجامد كالدّلالة الّتي في الحيوان النّاطق، فالصّامت ناطق من جهة الدّلالة والعجماء معربة من جهة البرهان "[2] .

ولم تكن الإشارة إلى دلالة النّصبة في "البيان والتّبيين" هي الأولى فقد أشار إليها في "الحيوان" واستعمل لها صيغاً عديدة، يقول: " وجعلَ آلة البيان في أربعة أشياء وفي خصلةٍ خامسة وهذه الخصال هي: اللّفظ والخطّ والإشارة والعقد، والخصلة الخامسة ما أوَجَدَ من صحّة الدّلالة، وصدق الشّهادة ووضوح البرهان في الأجرامِ الجامدة والصّامتة والسّاكنة "[3]. وهو ما سمّاه في البيان والتّبيين باسم دلالة النّصبة أيّ الحال النّاطقة بغير اللّفظ.

و ها هو أبو عثمان يحكم على سهل بن هارون من خلال نصبته وهيئته وحاله بالمهارة الخطابيّة مبيّناً ما للنّصبة والهيئة من أهميّة في معرفة الحقائق وكشف أسرارها. يقول: " وكذلك كان سهل بن هارون عتيق الوجه، حسن الشّارة، بعيداً عن الفدامة، معتدل القامة، مقبول الصّورة، يُقضى له بالحكمة قبل الخبرة وبرقّة الذّهن قبل المخاطبة وبدقّة المذهب قبل الامتحان وبالنّبل قبل التّكشّف فلم يمنعه ذلك أن يقول ما هو الحقّ عنده وإن أدخل ذلك على حاله النّقص "[4]. فحالةُ سهل بن هارون دلّت على شيء غير واضح بالنّظر، فهيئته وحاله دلّا على المهارة الخطابيّة الّتي يتميّز بها.

ويشير في مكان آخر إلى إمكانيّة أن تحلّ النّصبة محلّ الدّلالات الأربع السّابقة لها لأنّها أحد قسمي الحكمة التي تعتمد على التّأمّل في هذا الكون وما فيه من أشياء ومخلوقات، يقول في كتاب "الحيوان": " فموضوع الجسم ونصبته دليل على ما فيه وداعية إليه ومنبّهة عليه فالجماد الأبكم الأخرس من هذا الوجه قد شارك في بناء الإنسان الحيّ النّاطق، فمن جعل البيان خمسة فقد ذهب أيضاً مذهباً له جواز في اللّغة وشاهد في العقل، فهذا أحد قسمي الحكمة وأحد معنيي ما استخزنها الله تعالى من الوديعة "[5]. ويقول أيضاً في كتاب: "البيان و التّبيين": " النّصبة هي الحال الدّالة التي تقوم مقام تلك الأصناف ولا تقصر عن تلك الدّلالات "[6].

---

[1]- **الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص59.**

[2]- **الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص59،60.**

[3]- **الجاحظ، الحيوان، ج1، ص59.**

[4]- **الجاحظ، البيان والتبيين، ج1،ص63.**

[5]- **الجاحظ، الحيوان، ج1، ص35.**

[6]- **الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص76.**

تسمّى النّصبة بالدّليل العدميّ؛ لأنّها مفهوم لا يمكن تصوّر أبعاده إلّا بتصوّر مفهوم الصّفر ووظيفته في العمليّات الحسابيّة والعدديّة. والنّصبة تصوّر قلب اللّسانيّات الحديثة رأساً على عقب، فالمعنى حسب رأي الجاحظ ليس الوجه الخفي للدّال ولكن مدلول بغير دالّ أو مدلول ودالّ سلبيّ[1].

وكان هدف الجاحظ الأساس هو إثبات عظمة الله تعالى وقدرته ووحدانيته وهو لا يفرق بين دلالة ناطق و صامت وجامد و نام ومقيم وظاعن، وزائد وناقص، فالدّلالة التي في الموات الجامد كالدّلالة التي في الحيوان النّاطق، فالصّامت ناطق من جهة الدّلالة والعجماء معربة من جهة البرهان [2]. و ينقل أبو عثمان قول الفضل بن عيسى بن إبان: " سل الأرض فُقُلْ: من شقّ أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك؟ فإن لم تجبكَ حواراً أجابتك اعتباراً "، وقال خطيب من الخطباء حين قام على سرير الإسكندر وهو ميت: "الإسكندر ، كان أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس " [3].

إنّ حالة الأشياء دليل نستدلُّ به على معانٍ مخفيّة وكامنة في هذه الأشياء كما حكم الجاحظ على سهل ابن هارون بالمهارة الخطابيّة انطلاقاً من صفاته المميّزة له.

إنّ النّصبة أو كما تسمّى بالدّليل العدميّ كانت نتيجة الاحتدام الّذي دار بين الفرق الكلاميّة في إثبات قدرة ووجود الخالق عزَّ وجلّ، وهذا ما توصلّت إليه الدّراسات اللّسانيّة الحديثة في أثناء دراستها للّغات الإنسانيّة في تفسيرها لدلالة العدم إذْ يصبح السّلب أحياناً دليلاً على الإيجاب والسّكوت دليلاً على الكلام[4].

الاعتبار: يُعدّ الاعتبار أوّل أقسام البيان عند ابن وهب، فالاعتبار" هو الّذي تبين فيه الأشياء لمن تبيّن وتعبر بمعانيها لمن اعتبر "[5]؛ أيّ للإنسان الّذي يعتبر عندما يرى خلق الله تبارك وتعالى، وما فيه من معجزات وعظمة تتجلّى تتجلّى له من خلال عمليّة التّأمّل لكلّ ما هو موجود في الحياة.

ويقسّم ابن وهب الاعتبار إلى قسمين إمّا ظاهر وإمّا باطن؛ إذ يقول: " إنَّ الظّاهر من ذلك ما أدرك بالحسّ، كتبيّننا حرارة النّار وبرودة الثّلج على الملاقاة بهما، أو ما أدرك بنظرة العقل التي تتساوى العقول فيها، مثل تبيّننا أنّ الزّوج خلاف الفرد، وأنّ الكلّ أكثر من الجزء، والباطن ما غاب عن الحسّ واختلفت العقول في إثباته. فالظّاهر مستغنٍ بظهوره عن الاستدلال عليه والاحتجاج له، لأنّه لا خلاف فيه، والباطنَ هو المحتاج إلى أن يستدلّ عليه بضروب الاستدلال. ويعتبر بوجوه المقاييس والأشكال "[6].

فالظّاهر إمّا مدرك بالحسّ، كالفرق بين اللّون الأبيض والأسود، فهو يدرك بحاسّة النّظر أو الفرق بين حرارة النار وبرودة الثّلج من خلال حاسّة اللّمس أو غير ذلك من الحواسّ. و إمّا مدرك بالعقل وهي الأشياء البسيطة التي لا تحتاج إلى دليل كحقيقة الزّوج خلاف الفرد.

وأمّا **الباطن** فهو الّذي اهتم به ابن وهب؛ لأنّه يحتاج إلى دليل وحجّة وبرهان ، وليس كلّ الأشخاص قادرين على الوصول إليه " إنّما تعبر لمن اعتبر بها وتبين لمن طلب البيان منها، ولذلك جعل الله عزّ وجلّ الآية فيها لمن توسّم وتفكّر وعقل وتذكّر، فقال:﴿ إنّ في ذلك لآيات للمتوسّمين ﴾ الحجر 75. و ﴿ إنّ في ذلك لآيات لقوم

---

[1]– ينظر: محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية في التراث العربي، ص19.

[2]– الجاحظ، البيان والتبيين، ج1،ص81.

[3]– السابق نفسه.

[4]– محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية في التراث العربي، ص19.

[5]– ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، ص65.

[6]– السابق نفسه.

يعقلون ﴾ الرعد 3. و ﴿ إنّ في ذلك لآية لقوم يذّكّرون ﴾ النمل 13، فهذا وجه بيان الأشياء بذواتها لمن اعتبر بها وطلب البيان منها فإذا حصل هذا للمتفكّر صار عالماً بمعاني الأشياء "[1].

ومفهوم الاعتبار عند ابن وهب مقابلٌ لمفهوم النّصبة عند الجاحظ التي تمثّل عنده " الحال النّاطقة بغير اللّفظ والمشيرة بغير اليد، وذلك ظاهر في خلق السّموات والأرض..."[2] .

فعلى الرّغم من اختلاف تسمية المفهوم عند النّاقدين يتّفقان في المعنى. فكلّ صامت ناطق بحاله وهيئته ممّا يدلّ على عظمة الخالق، " وقد ذكر الله تعالى في قرآنه الكريم آيات تذكر أشياء خلقها الله تنطق من جهة الدّلالة فهي تدلّ على قدرته وعظمته، يقول تعالى في كتابه العزيز:﴿ إنّ في خلق السّموات والأرض واختلاف اللّيل والنّهار والفلك الّتي تجري في البحر بما ينفع النّاس وما أنزل الله من السّماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثَّ فيها من كلّ دابّة وتصريف الرّياح والسّحاب المُسخَّرِ بين السّماء والأرض لآيات لقومٍ يعقلون ﴾ البقرة 164، ولذلك قال بعض الحكماء: " أشهد أنّ السّموات والأرض، آيات دالّات وشواهد قائمات كلّ يؤدّي عنك الحجّة، ويشهد لك بالربوبيّة " [3].

وهذا ما أكّده عليّ بن الحسين بن عليّ[4] بقوله: " لو كان النّاس يعرفون جملة الحال في فضل الاستبانة، وجملة وجملة الحال في صواب التّبيّن، لأعربوا عن كلّ ما يختلج في صدورهم و لوجدوا من بَرْدِ اليقين ما يغنيهم عن المنازعة إلى كلّ حال سوى حالهم "[5].

وها هو الشّاعر يسأل شيئاً غير ناطق ويجيب عنه بهيئته وحاله الظّاهرة فيقول:

يا رَبعَ بشرةَ بالجنابِ تكلّمِ وأَبِنْ لنَا خَبراً ولا تَسْتعجِمِ

فالشّاعر يطالب شيئاً غير ناطق بالرّدّ عليه من خلال حاله وهيئته.

وقال آخر:

فأجهَشتُ للتّوباذِ حينَ رأيتــه وكبَّر للرّحمــنِ حيــنَ رآنـــي

يصوّر الشّاعر أشياء غير ناطقة بصورة الإنسان النّاطق من خلال نصبتها وحالها.

فقلــتُ لهُ: أينَ الّذينَ عَهدتَهم حواليــكَ فــي عيــش وخيــرِ زَمانِ

ويسأل ذلك الشّيء الجامد عن أحبابه فيجيبه:

فقالَ: مَضوا و استودَعوني ديارَهم ومنْ ذَا الّذي يَبقَى على الحَدثانِ [6]

يجيبه بوضعه الّذي هو عليه وآثار سكّانه المتبقّية بأنّهم هجروه وتركوه منذ زمن.

وقد عرف عن العرب في شعرهم سؤال الأطلال والدّيار عن ساكنيها، وعن المحبوبة، وكان ذلك جزءاً من عمود الشّعر الّذي كانوا يتّبعونه في قصائدهم، فتبدأ القصيدة بالوقوف على الطّلل وسؤاله وإجابة ذلك الطّلل، فهم يسألون شيئاً غير ناطق وهو يجيب بالحال التي يكون عليها.

---

[1] – ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، ص65.

[2] – الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص81.

[3] – السابق نفسه.

[4] – علي بن الحسين: علي "الأكبر" بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، القرشي الهاشمي: من سادات الطالبيين و شجعانهم، قتل مع أبيه في كربلاء، ت 680 م. الأعلام ج4 ص277.

[5] – السابق نفسه.

[6] – الأبيات موجودة في كتاب ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، ص57.

وهذه العمليّة عمليّة الحصول على العلم بحسب ابن وهب تتم عبر طرقٍ هي: القياس والخبر والظن.

أولاً: **القياس:** ويكون نتيجة لمقدّمة أو مقدّمات، يقول ابن وهب: " ليس يجب القياس إلّا عن قول يتقدّم، فيكون القياس نتيجة، كقولنا: إذا كان الحيّ حسّاساً متحرِّكاً، فالإنسان حيّ ". فبالقياس نصل إلى حقائق تكون نتيجة لتلك المقدّمات.

ثانياً: **الخبر:** وهو الوسيلة الثّانية الّتي يحصل بها العلم، فإذا كانت أوجه النّشاط في التّواصل الذّاتيّ تتفاعل متأثّرة بوجهة نظر القائم بالاتّصال في الحياة، فهي تتوسّل بالخبر كما تتوسّل بالقياس [1]، وحجّته في ذلك قوله تعالى: " فاسألوا أهل الذّكر إن كنتم لا تعلمون " الأنبياء 7.

ثالثاً: **الظّنّ:** هو الوجه الثّالث الّذي نستطيع به استنباط باطن الأشياء وذلك عندما لا نستطيع الوصول إليها عن طريق القياس أو عن طريق الخبر[2].

فهذه الطّرق الثّلاث (اليقين، التّصديق، الظّنّ) لا يمكن أن تتجاوز إحداها الأخرى إلا إذا فُقِدَتْ. يقول: " وطلبوا في الأشياء اليقين، فإن وجدوه تركوا غيره، فإذا عدموه طلبوا الإقناع الّذي به التّصديق، فإن وجدوه أخذوا به، وإن لم يجدوه أعملوا الظّنّ "[3].

و هكذا فإنّنا نلاحظ أنّ ابن وهب ركّز في عنصر الاعتبار على الباطن، واهتمّ به، وبكيفية الوصول إليه اهتماماً شديداً، في حين نجد أبا عثمّان قد ركّز على الظّاهر والباطن وانطلق من الأوّل إلى معرفة الثّاني.

الاعتقاد: إنّ عنصر الاعتقاد مرتبط ارتباطاً وثيقاً بعنصر الاعتبار، الّذي يعني بيان الأشياء بذواتها يقول ابن وهب: " إنّ الأشياء إذا بيّنت بذواتها للعقول وترجمت عن معانيها للقلوب، صار ما ينكشف للمتبين من حقيقتها معرفة وعلماً مركوزين في نفسه "[4].

وقد قسَّم ابن وهب هذا البيان إلى ثلاثة أنواع[5]: حقّ لا شبهة فيه، و ما يشتبه فيه، وباطل.

نستنتج ممّا سبق أنّ النّصبة تمثّل السّموات والأرض والبحار والجبال وكل ما هو ظاهرٍ أو خفي يقول الله تعالى: ﴿ ولو أنما في الأرض من شجرة أقلامٌ والبحر يمدُّه من بعده سبعة أبحر ما نفِدت كلمات الله إنّ الله عزيز حكيم ﴾ لقمان27، وهي " في هذا الموضع ليس يريد بها القول والكلام المؤلّف من الحروف وإنّما يريد بها النعم والأعاجيب والصّفات وما أشبه ذلك "[6].

ويرى عبد الملك مرتاض أنّ مفهوم النّصبة السّابق يفسح المجال للتّأويل حول قضيّة الفكر و اللّغة وأيّهما أسبق، حيث يدلّ كلام الجاحظ عن النّصبة أنّ التّفكير: " هو الّذي يبني من هذه اللّغة النّسيج الأدبيّ الذي نطلق عليه الكتابة "[7].

---

[1]– السابق، ص81.

[2] – السابق، ص91،92.

[3]– ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، ص84.

[4]– السابق، ص 86.

[5]– انظر: السابق، ص101،102،103.

[6]– محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ص 78.

[7]– عبد الله مرتاض، اللغة و المعنى، ص19.

وبذلك يصل الجاحظ إلى نتيجة أنّ النّصبة أسبق من البيان لأنّها تعتمد على الفكر، فهي تعرض المعاني المبسوطة أمام العقل، وبالتّالي فإنّ الفكر أو المعنى أسبق عند الجاحظ من اللّغة أو اللفظ " فالاسم متأخّر عن المعنى رتبة، والمعنى متقدّم على الاسم، فلا يمكن تسمية الشّيء حتّى يتعيّن وإلا فلغوٌ وغلط " [1].

من الملاحظ أنّ الجاحظ يصنّف أقسام البيان في نظام هرميّ متسلسل من خلال طبقات إذ إنّ " كلّ طبقة تنحدر من سالفتها وتلخّصها، فهي هي لكنّها ليست هي؛ لأنّها وإن كانت صورة مصغّرة منها فقد فقدت بانحدارها شيئاً من خصائص الأولى " [2]؛ أي عمليّة التّولد تولّد وجوه البيان من بعضها الآخر، و ابن وهب كما الجاحظ يجعل كل وجه من وجوه البيان ناتجاً من سابقه. ويقول في حديثه عن بيان الاعتبار: " فإن حصل هذا البيان للمتفكّر صار عالماً بمعاني الأشياء، وكان ما يعتقد من ذلك بياناً ثانياً غير ذلك البيان، وخصّ باسم الاعتقاد، ولمّا كان ما يعتقده الإنسان من هذا البيان ويحصل في نفسه منه غير متعدٍّ له إلى غيره وكان الله عزّ وجلّ قد أراد أن يتمّم منه فضيلة الإنسان خلق له اللسان، وأنطقه بالبيان، فخّبر عمّا في نفسه من الحكمة التي أفادها والمعرفة التي اكتسبها، فصار ذلك بياناً ثالثاً أوضح مما تقدّمه " [3]، بقليل من التّمعنّ نجد أنّ بيان الكتاب هو وليد بيان العبارة وبيان العبارة هو وليد بيان الاعتقاد وبيان الاعتقاد هو وليد بيان الاعتبار. وزوال واحد من هذه الوجوه يؤدي إلى زوال الوجه التّالي له. كذلك فابن وهب يقسّم البيان إلى نوعين: الأوّل أنّ الاعتبار والاعتقاد هما بيانان بالطبع والفطرة والعبارة والكتاب هما بيانان بالتّعلم والاكتساب. يوضّح ذلك بقوله: " إلّا أنّ البيانين الأوّلين بالطّبع فهما لا يتغيّران وهذا البيان والبيان الآتي بعده بالوضع فهما يتغيّران بتغيّر اللّغات ويتباينان بتباين الاصطلاحات "[4].

إنَّ(بيان الكتاب) لا يمكن أن يتحقق دون أن يسبق باللفظ والكلام أي(بيان العبارة) وبيان العبارة لا يمكن أن يتمّ إلاّ بعد أن تكون المشاعر والأفكار قد عرضت على الفكر أي (بيان الاعتقاد) وهذه الأفكار عندما تتعّرض للتأمل يحصل(بيان الاعتبار).

وكأنّنا بابن وهب إزاء نظريّة مكتملة العناصر. يقول محمّد العمريّ: " إنّ عمل ابن وهب أقرب إلى نظريّة في المعرفة "[5]، ويقول الجابريّ في السّياق ذاته: " إذا نحن عدنا الآن وألقينا عليها (أي وجوه البيان) نظرة عامّة من منظور تركيبيّ فإنّنا سنجد أنفسنا إزاء مشروع لنظريّة بيانيّة في المعرفة "[6]. أو هي بتعبير آخر " طريقة في اكتساب اكتساب المعرفة وتصنيفها من حيث درجات اليقين فيها " [7]. ويقول في موضع آخر: " يتعلق الأمر إذن بنظرية في المعرفة البيانية على جميع المستويات "[8].

ويذهب الجابريّ إلى أنَّ البيان عند ابن وهب يمثّل تجليّات العقل ونشاطه يقول: " العقل والبيان، إذن، مقوّمان للإنسان، متكاملان ومتداخلان، ومن هنا ستكون " وجوه البيان" هي نفسها تجلّيات العقل ومظاهر نشاطه "[9].

---

[1] – السابق نفسه.

[2] – محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية و البلاغية و الأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ص92.

[3] – ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، ص 62.

[4] – السابق نفسه.

[5] – محمد العمري ، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص 213.

[6] – محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي " دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية "، ص 37.

[7] – السابق، ص38.

[8] – السابق نفسه.

[9] – السابق، ص 34 .

خاتمة:

اتّضح أنّ النّاقدين اشتركا في اعتبار الألفاظ محدودة والمعاني غير محدودة، كما عُنيا بتقسيم العبارة إلى وجه ظاهر وآخر باطن، فاهتمّ الجاحظ بدراسة الظّاهر والتّوصل من خلاله إلى معرفة الباطن والمراد من الكلام المتواري خلف اللّفظ الظّاهر، في حين نجد ابن وهب يهتمّ اهتماماً كبيراً بمعرفة الباطن دون أن يولي الظّاهر أيّ اهتمام ويسوغ ذلك بأنّه لا يحتاج إلى تفسير وبرهان.

تبيّن اهتمام الجاحظ بالمتلقّي، وتأكيده أهميّة اللّفظ في إيصال المعنى إليه، لأنّ جلّ اهتمامه على اللّغة فهي الوسيلة الأهمّ للتّواصل بين المتكلّم والسّامع في حين لا نجد ابن وهب يهتمّ بالسّامع كاهتمامه بالمتكلّم وما قصده من حديثه.

تبيّن أنّ الجاحظ يؤكّد على أهميّة الإشارة، وما فضلت به عن اللّفظ وأنّها ضروريّة لزيادة قوّة تأثير الكلام في المتلّقي. ويؤكّد موضوعات لم يتناولها ابن وهب وهي أنّ الإشارة تساعد الصّوت وتعينه وتزيده وضوحاً كما تعبّر عمّا سمّاه بخاصّ الخاصّ أي الإشارة المتعارف عليها عند مجموعة من النّاس لا يعرفها غيرهم، كإشارات الأصدقاء لبعضهم مثلاً، ولم ينسَ أن يشير إلى أنّ استخدام الإشارة يتطلّب مراعاة المقام كاستخدام اللّفظ الّذي يتطلب مراعاة المقام، مع توافقها مع المعنى المقصود إفهامه للسّامع .

في حين نجد ابن وهب الكاتب يتحدّث في فقرة صغيرة ضمن باب العبارة عمّا سمّاه الوحي فيعرّفه كما يعرّف الجاحظ الإشارة بأنّه الإبانة عمّا في نفس المتكلّم. فكان تركيز صاحب البرهان دائماً منصبّاً على المتكلّم وقصده من كلامه و كان الجاحظ يلقي اهتماماً كبيراً لقوّة تأثير القول في المتلقّي وكيفيّة فهمه الكلام والإشارة الّتي يطلقها الملقي.

اتّضح اتّفاق النّاقدين على أهميّة التّدوين والكتابة في حفظ تراث الأمم، ونقل أخبار السّابقين، وحفظ العلوم والمعارف. كذلك يتّفقان في أنّ الكتاب يعين صاحبه على التّدقيق وتصحيح الأخطاء، وأنّه يصل إلى الغائب في أيّ زمان وأيّ مكان وهو ناف للشّك. و انفرد ابن وهب في الحديث عن الكتّاب فحصرهم في خمسة هم كاتب خطّ وكاتب لفظ و كاتب عقد وكاتب حكم وكاتب تدبير. كما أشار إلى أهمّ الصّفات التي يجب أن يتحلّى بها كاتب الخطّ، وقسّم المكاتبين إلى ثلاث مراتب وفصّل في الحديث عن أجناس الخطّ، وذكر أنواع القلم. و هذه الموضوعات التي تطرّق لها ابن وهب أغفلها الجاحظ ولم يذكرها في أثناء حديثه عن أنواع الدّلالات. كما اتّفق النّاقدان على أن النّصبة أو الاعتبار هي الحال النّاطقة بغير اللّفظ والمعتمدة على التأمل لكلّ ما هو موجود في الحياة.

المصادر و المراجع

ـ القرآن الكريم

1. ألتونجي، محمد. المعجم المفصل في الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1999م.
2. بناني. محمد الصغير. *النّظريات اللّسانية في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة* ، سلسلة أهل الحكمة، د.ط، د.ت.
3. بناني. محمد الصغير. *النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان و التبيين*، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1986م.
4. البهنسي. عفيف. *معجم مصطلحات الخط العربي والخطاطين*، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، د.ط، 1995م.

5. الجابري. محمد عابد. *بنية العقل العربي " دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية* " دار القلم للطباعة والنشر، بيروت، لبنان دراسات الوحدة العربية، بيروت، د.ط، 1997م.

6. الجاحظ. عمرو بن بحر. *البيان والتّبيين*، تحق: درويش جويدي، المكتبة العصرية، د.ط،2014م.

7. الجاحظ. عمرو بن بحر. *الحيوان*، تحق: عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط2، د.ت.

8. الجاحظ. عمرو بن بحر. *رسائل الجاحظ*، تحق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1 1991م.

9. حسام الدين. كريم زكي. *الاشارات الجسميّة "دراسة لغويّة لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التّواصل "*، دار غريب للطباعة والنشر، ط2، د.ت.

10. الخفاجي. ابن سنان. *سرّ الفصاحة*، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1982م.

11. الزركلي. خير الدين. *الأعلام*، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002م.

12. السعدني. مصطفى. *استاطيقا الإشارة " دراسة بلاغيّة سيميوطيقيّة* "، توزيع منشأة المعارف الإسكندرية، د.ط، 1994م.

13. عمر. أحمد مختار. *أنا واللغة و المجتمع*، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2002م.

14. العمري. محمد. *البلاغة العربية أصولها و امتداداتها*، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، د.ط، د.ت.

15. الكاتب. ابن وهب. *البرهان في وجوه البيان*، تحق: أحمد مطلوب، خديجة الحديثي، ساعدت جامعة بغداد على نشره، ط1، 1967م.

16. مرتاض. عبد الله. *اللغة و المعنى*، مجلة القافلة، شركة أرامكو السعودية ،مج 44،ع7، نوفمبر ديسمبر، دار الحكمة، الجزائر، 2001م.